داود باشـــا حاول الاستقلال بالعراق عن الدولة العثمـــانية فنال محـــبة البغـــداديين

عبد الكناني
بغداد

قصّرتِ البحوث التاريخية التي تناولت تأريخ العراق الحديث، بحق الوالي الشهير داود باشا والي بغداد، الذي ظهر على المسرح السياسي في حقبة من أكثر الحقب اثارة في تأريخ الدولة العثمانية والعراق، إذ عنت بتأريخ الولاة والمصلحين وحياتهم وأدوارهم، ولم تعطه حقه، أو المكانة اللائقة التي تنسجم وشخصيته وحنكته ومكانته، وكادت حتى الكتب المدرسية التي احتوت وأرخت لحركات الاصلاح في التأريخ الحديث ان تهمله، وتجنح عن الاشارة اليه والتعريف به.. فقد تركزت الأضواء على الوالي مدحت باشا، وعدته وراء الكثير من الانجازات العلمية والثقافية، والتطورات السياسية والاجتماعية وحتى العسكرية.. وكان القارئ البسيط لا يلمح إلاّ لماماً من اشارات للوالي داود باشا، سوى أهل التأريخ الذين ينقبون في بطون الكتب فيجدون ويكتشفون ان لهذا الوالي دوراً كبيراً في حياة العراقيين، وهو المملوك الذي انتزع فرصته بعلميته وثقافته ومهاراته السياسية، واسلوبه المتفرد الذي عكس عصامية نادرة، فقد قطع شوطاً طويلاً في اثبات جدارته، وترسيخ مكانته في المجتمع العراقي، ليقطف في النهاية ثمار جهاده ودأبه لتحقيق أحلامه والتعويض عن حالة الحرمان التي عاناها منذ ان خطفه المتاجرون بالرق والعبيد من بلاده، وهو الطفل المدلل الحبيب الى أمه.. ليتولى ولاية بغداد التي تشرف على ولايات العراق الأخرى وهي (البصرة والموصل وشهرزور وماردين) وهو في الخمسين من عمره، ليبدأ مرحلة أخرى نحو البروز والتألق والتطلع الى حلم أكبر وهو الاستقلال بالعراق عن الدولة العثمانية، على غرار تجربة محمد علي باشا في مصر.

لقد تناول بعض المؤرخين حياة الوالي داود باشا في مؤلفات مستقلة، منها: (مطالع السعود بطيب أخبار الوالي داود. لعثمان بن سند البصري. وحققه المؤرخ عماد عبد السلام رؤوف) وجميس ريموند. رحلتي الى بغداد في عهد الوالي داود/ تاريخ العراق/ من داود باشا الى مدحت باشا/ وداود باشا ونهاية حكم المماليك في العراق، ليوسف عزالدين/ في ما تناولته في فصول خاصة جمهرة من الكتب الأخرى مثل (معالم بغداد في القرون المتأخرة. محمد. ورحلة الهند والخليج العربي، لفوتانييه. ورحلة نيبور الى العراق في القرن الثامن عشر. وتأريخ الدولة العثمانية. وصور من تأريخ العراق في العصور المظلمة، لجعفر الخياط. وأحوال بغداد في القرنين الثامن والتاسع عشر، وبغداد في العهد العثماني. وخلاصة تأريخ العراق/ علاوة على كتب أخرى عديدة.. وأضاف الباحث عدنان محمد قاسم كتاباً جديداً عنه في وقتنا الحاضر، وهو أطروحته لنيل شهادة الدكتوراه في التأريخ الحديث، الموسومة (داود باشا واصلاحاته في العراق.. دراسة تاريخية)، إذ ألقى فيها الأضواء جلية وساطعة على هذا الوالي واصلاحاته في العراق، ودوره في النهضة الثقافية العراق تحت حكم الاتحاديين لفيصل حكم المماليك لعلاء نورس. وتطور

العراق لا تخضع للدولة العثمانية سوى بدفع بعض الأموال التي تحدد على الدولة.

وداود باشا هو الوالي الشجاع والنبيل الذي اكتسب محبة البغداديين فكتبوا الى الباب العالي لأن يوليه على بغداد، بل على العراق كله، وأسباب وحيثيات هذه العلاقة الطيبة، والاصلاحات والأعمال التي قام بها، التي جعلت منه سفيراً ناجحاً للمماليك، بل حصل المماليك من خلال سمعته ودوره وإسهاماته ومكانته، حصلوا على محبة البغداديين، وتفوقوا على العثمانيين وعلى بعض العراقيين سواء في قيامهم بأعمالهم بكفاءة وتميّز، أم بحسن علاقتهم وتفانيهم في الحصول على مكانة في قلوب أهل البلاد الأصليين. وللحديْث بقية..

من ذاكرة الغناء العراقي صديقة الملاية

أول مطربة عراقية غنّت للاذاعة بعد افتتاحها عام ١٩٣٦

أرادت صديقة ان تقول متحدية ان للفن رسالة كبقية الرسالات التي تنشد خير الإنسانية وترسم لها مستقبلاً مضيئاً يبتعد عن ما يسيء وينفر ويكدر صفو العيش. لذا لم تجد أمامها سبيلاً لنشر فنها غير طريق الألحان والغناء والتطريب، مضطرة للعمل تحت لافتة بائسة مكتوب عليها: ملهى! يقول احد من عايشها واحب غناءها: لهذه المطربة الكبيرة التي أزرى الدهر بها في ايامها الاخيرة، اسمان هما فرجة بنت عباس بن حسن من آل شبل، والثاني صديقة بنت صالح بن موسى، وهي من مواليد ١٩٠١.

نزحت بها امها المطلقة من قضاء المسيب الى العاصمة بغداد، وصديقة لم تزل في الثانية من عمرها، وسكنتا محلة باب الشيخ الشعبية ، مأوى الفقراء ومن تقطعت بهم السبل، وهكذا ترعرعت صديقة بين الشتات والضياع والحاجة القصوى الى الرعاية والاهتمام والحنان الابوي، يومها كانت النظرة الى النساء على انهن إماء وجوار وآلات تفريخ ليس إلا.. حين بلغت فرجة بنت عباس او صديُقة بنت صالح سن الرشد، راحت تقضي أيامها في المناسبات مع ملايات ذلك العصر ينشدن اشعارهن في الافراح والاتراح كتنفيس عما يعانين من سجنهن النسائي الذي كُنّ فيه نتيجة الحجر الاجتماعي، يخففن من ضيقهن في عالم ذكوري لايرحم، باجواء دينية نسائية بحته. واختصت بالتتلمذ على يد الملا (شمسة) وعنها اخذت لونها الغنائي الذي عرفت به صديقة في ما بعد.

وسارت الأيام على غير رأي قاطع منها كأنها مسوقة لجو لا تميل اليه، بل على الرغم منها ولكن لابد مما ليس منه بدُ ! راحت تغني في ملاهي بغداد في العشرينيات وثلاثينيات القرن العشرين، وذاع صيتها كمغنية متميزة ومستكملة أدواتها الفنية جميعاً، وما اسرع ما تهافتت عليها شركات الاسطوانات لتسجيل أغانيها وبستاتها ومقاماتها العراقية ولأول مرة بصوت نسائي ما أثار إعجاب القوم وعلى رأسهم المقاميي إذ كيف يتسنى لصوت نسائي تأدية هذا اللون الغنائي الصعب ذي المداخل والمسالك الذي يتيه، في تشعباته الكثيرة من ابرع المقاميين الرجال ليس هذا فحسب وانما اصبحت تلك المقامات والاغاني التي تغنيها صديقة على كل شفة ولسان ويرددها الشيخ الكبير الطروب قبل الصغير اللعوب، لما في تأديتها من عاطفة جياشة صادقة مشحونة بدفقات حب دفين لكل لون غنائي اصيل واثير، والكلام يخص الثلاثينيات: يا صياد السمج- صيدلي بُنية- عجب أنت إحضري- وانه إبدويه.. آلت صديقه بعد ان حققت احلامها في الشهرة والثراء، ان تترك عالم الملاهي والابتذال، واتجهت في ١/تموز/١٩٣٦ يوم افتتاح اذاعة بغداد اللاسلكية أول مرة في العراق، لتكون اول مطربة عراقية تبث اغانيها من هذه الاذاعة الوليدة.

وكان المستمعون لها والمعجبين بها يجتمعون ليروا صديقة المطربة والمقامية الاعجوبة، وينتظرون غناءها بفارغ الصبر فنكهتها الغنائية متميزة عن الاخريات الوافدات من مصر والشام ولبنان. واصبحت صديقة مطلب المستمعين رقم واحد في بغداد والمحافظات كذلك من دول الجوار، وصارت ترأس قوائم المطربات المدعوات الى الحفلات الرسمية والشعبية، العامة منها والخاصة، وراح من يدعون بالذوات والباشوات في ذلك العهد يفخرون بدعوتها الى بيوتهم لما تتمتع صديقة الملاية من صيت طيب على الصعيدين الشخصي والفني.

الافندي – الافندي- عيوني الافندي- الله يخلي صبري – صندوق أمين البصرة.

ما عندي ماعندي- غيره ما عندي- هو شريك الروح – غيره ما عندي، وكان يأنس لها ويوجه لصديقة الدعوات المفتوحة، امير المحمرة الشيخ خزعل، وتبقى ضيفة معززة مكرمة في دواوينه وايوانياته، وعندما يبرح بها الشوق الى معجبيها في بغداد، تنتحل شتى الاعتذارات للأمير حتى تعود اليهم محملة بما يخف وزناً ويغلو ثمناً. للناصرية.. وللناصرية.. تعطش واشربك ماي.. بثنين إيديه وما يسجل لها وهي في عنفوان مجدها وتألقها، عطفها على الايامى واليتامى والمساكين والفقراء والمعوزين، وصرفها الكثير مما تحصل عليه من اموال وتحت سُتر الخفاء وانها الوحيدة اوما يقرب من هذا المعنى التي حافظت على حيائها النسائي برغم عملها في علب الليل وملاهيه، وانها اتخذت اسمها بما لا يدل على أصلها وعائلتها حفاظاً على سمعتهم بسبب النظرة التي كان ينظر فيها المجتمع الى الفنون جميعاً كما اسلفنا. ولتأديتها مقامات البهيرزاوي والحكيمي والمحمودي وغيرها، اصبحت ظاهرة غنائية لفتت الانظار اليها واستعاد القوم في اذهانهم امجاد المغنيات في العصر العباسي دنانير وسلامة (غير سلامة القس) وحبابة وقوت القلوب وتودد ونرجس وغيرهن.

وتميزت الملاية بذائقتها العراقية ونكهتها الشعبية وسلاسة الفاظها وسلامتها من لحون ولكنات الاخريات الوافدات من هنا وهناك.

كلجن يامظلومات للكاظم إمشن.. وعند سيد السادات.. فكن حزنجن.. مظلومة.. محرومة.. مهضومة يا سيد.. مهضومة.. ولمعرفة موقع هذه المطربة التي الهبت مشاعر العراقيين بصوتها الفريد نقرأ ما كتبه الشاعر الكبير والصحفي المخضرم الملا عبود الكرخي عنها (الملا عبود من مواليد ١٨٦١ وتوفى سنة ١٩٤٦) حيث يقول في قصيدة عصماء جاء في بعض ابياتها: معجب واشهد يملا.. للصخر صوتج يفله.. بالكلب خليتي علّه نغمتج حلوة ورقيقه.. كل مغني إذا غنّه.. عندي صوتج أحلى منه وفي أواخر أيامها تكالبت عليها الامراض خاصة الروماتزم، وفقدت بصرها تماماً، وعانت الوحدة والاهمال وراحت تعتاش على ما يتصدق به المتصدقون عليها حتى ماتت كمداً في ١٩/٨/١٩٧٠ ولسان حالها يردد مقاطع من أغانيها الشائعة.

واس بان مني ذنب يا عيوني .. جيت أغير هوى وصادوني يايوب.. يايوب.. يايوب.. آه واويلاه!!

لميعة توفيق .. صوت قوي النبرات

لميعة توفيق مطربة عراقية ولدت في بغداد عام ١٩٣٧ وهي واحدة من مطربات بغداد الشهيرات التي كانت تغني باللهجة البغدادية . نشأت في وسط فني يحب الغناء الريفي. أكملت دراستها الثانوية في مدرسة الكرخ ثم دخلت مدرسة الموسيقى عام ١٩٥٠ وتخرجت في معهد الفنون الجميلة عام ١٩٥٩، وعندما عرفت بحلاوة صوتها تقدمت إلى الاذاعة عام ١٩٥٣ وغنت عدد كبير من الاغاني ، وعندما بدأ بث تلفزيون بغداد عام ١٩٥٦ قدمت الكثير من الحفلات التي جعلت صوتها و لونها الغنائي معروفاً ، سافرت إلى الكثير من الاقطار العربية و الاوروبية في ذلك الوقت لتحيي حفلاتها.. صوت قوي النبرات ريفي النكهة مدني الصدى.. حالفها الحظ فأحتفظ التلفزيون العراقي لها بأغنيات مصورة تعد على أصابع اليد، اهتمت بالغناء على خشبة المسارح الليلية أكثر من اهتمامها بالغناء الإذاعي، طبقتها الصوتية عالية جداً وخزينها من الأغاني الإذاعية لا يتجاوز الخمس والثلاثين أغنية بالرغم من رحلتها الطويلة مع الغناء، وهي تجيد الغناء لأطوار الأبوذية والسويحلي والنايل بشكل جيد وجميل، لكنها ظلت حبيسة المسارح، وقد برعت في غناء (الهجع) منذ عام ١٩٥٣ عندما سمعته في منطقة المشخاب، وهذا النوع من الغناء تشتهر به مناطق الفرات الأوسط من العراق، وهو غناء راقص يعتمد في أغلب الأحيان على آلة موسيقية واحدة هي الطبلة. من أغانيها المشهورة، «هذا الحلو كاتلني يعمه» و« شفته وبالعجل حبيته والله « والأغنيتان من ألحان الملحن محمد نوشي، ولها أغنية «يا الولد يا أبني « التي ذاع صيتها بسرعة مذهلة في البيوتات العراقية لخصوصيتها المحلية البحتة. ابتعدت المطربة لميعة توفيق عن الغناء في بداية الثمانينيات من القرن المنصرم بعد أن مرت بمرحلة قاسية صعبة عرفت بأغاني الهجع وهو وزن ريفي راقص اشتهرن به مطربات الغجر وسجل التلفزيون لها أغانيها.. وبقيت واقفة أمام المايكرفون تغني حتى انطفأت شمعتها في تسعينيات القرن العشرين تاركة العشرات الأغنيات ماتت لميعة توفيق عام ١٩٩٢ بسبب مرض عضال ودفنت في مقبرة الكرخ في بغداد. وتركت أرثاً كبيراً من أغانيها المسجلة في إذاعة بغداد. غنت لميعة أطواراً من «الأبوذية» و«السويحلي» و«الهجع» و«النايل» وهو فن عراقي يتصف بالحنين والعواطف الجياشة حيث أبدعت فيه هذه الفنانة الكبيرة، ومن أغانيها الشهيرة:

- شفته وبالعجل حبيته والله
- نيشان الخطوبة
- هذا الحلو كاتلني ياعمة
- يلماشية بليل إلهلج
- يمة إهنا يمة
- جينا نشوفكم
- العايل ما إله حوبه
- يا يمه انطيني الدربيل

الاوائل من العراقيات

من اللافت للنظر ان العراقية ظهرت على صعيد الشارع سياسية مقدامة تشترك في تظاهرة وطنية كبرى وكان ظهورها من الناحية التاريخية مبكرا جدا حين شاركت امرأة بغدادية لم تذكر ادبيات ثورة العشرين في بغداد اسمها بل ذكرتها بصنفها الانثوي مشاركة في تظاهرة وطنية اجتازت شارع الرشيد عند تشييع الشهيد (حسن النجار) المعروف (بحسن الاخرس) الذي قتله الانكليز كانوا يحاصرون جامع الحيدر خانة بمصفحتين محملتين بالجنود والمهيأتين لضرب الجماهير المحتشدة في جامع الحيدر خانة لاحياء ذكرى المولد النبوي الشريف ابان فترة الغليان السياسي حيث كانت نهايات المولد النبوي تتحول الى تظاهرة صاخبة تطالب بالاستقلال الوطني وكان المرحوم الملا عثمان الموصلي يسهم في احياء هذه الموالد ويدعو في ختامها الى الثورة ضد الانكليز والمطالبة الاستقلال الى جانب القصائد الحماسية للشاعر محمد مهدي البصير.

لقد تحول تشييع حسن الاخرس الى تظاهرة وطنية كبرى وبحماس لاهب واستقطاب جماهيري منقطع النظير حيث استثمر هذا التشييع استثمارا وطنيا كان للجراوية البغدادية حضورها المتميز وحضور المراة لاول مرة وهي تهتف مع المشيعين بسقوط الاستعمار البريطاني ملوحة بعباءتها كبيرق تحقيق فوق اعلى سارية في ٢٤/ ٥/ ١٩٢٠.

وعلى الصعيد المهني ومن باب شد ازر الرجل والوقوف الى جانبه في توفير دخل يومي للعائلة كانت السيدة زوجة المصور الاهلي الثانية هي اول مصورة فوتوغرافية محترفة تلتقط الصور للنساء في استديو زوجها المصور عبد الرحمن خلال عامي ١٩٣١.١٩٣٢.

وكانت الانسة صبيحة الشيخ احمد الداود اول طالبة عراقية دخلت كلية الحقوق التي تأسست سنة ١٩٠٨ كبديل لمكتب الحقوق العثماني.

وكان ذلك عام ١٩٣٦ وتخرجت كأول عراقية تحمل اسم الخريجة الاولى مارست بعدها المحاماة كأول محامية في تاريخ القضاء العراقي.

وفي قيادة السيارات كانت السيدة امينة علي صائب اول سيدة عراقية تحصل على اجازة قيادة المركبات عام ١٩٣٦ حيث بدأت قيادة سيارتها الـB.B فورد في شوارع بغداد.

اما اول سيدة سافرة فهي السيدة ماجدة الحيدري عقيلة السيد رؤوف الجادرجي التي دخلت المستشفى عام ١٩٣٣ لاجراء عملية استيئصال الزائدة الدودية وكانت خائفة من اجراء العملية فنذرت ان تسفر عن وجهها اذا نجحت العملية وان تخرج من المستشفى وهي سافرة وتكللت العملية بالنجاح فاعتبرت اول سيدة عراقية مسلمة تعلن السفور كظاهرة حضارية. واول صيدلانية مارست العمل الحر في بيع الادوية لطالبيها هي الصيدلانية جوزفيف برجوني التي تخرجت من كلية الصيدلة عام ١٩٤٠ والى جانبها زميلتها رحيمة يوسف فهما اول عراقيتين دخلتا كلية الصيدلة والكيمياء.

كعك السيد في شارع الرشيد.. ذاع شهرته في انحاء العراق

عبد الكريم علي الوائلي

في سنة ١٩٠٦ قرر المغفور له السيد حسين علي السامرائي من مواليد بغداد ١٨٦٩ ان تكون هذه سنة بداية له ليصبح «جركجي» بعد ان ترك مهنته السابقة «البزازة» بائع اقمشة، فتعلم المهنة من الذين سبقوه، وخاصة الاتراك الذين لهم الخبرة الاولى في عمل الكعك. فبعد ان اتقن المهنة بشكل كامل شيد الفرن الاول في بغداد بمنطقة «راس القرية» قرب ساحة الغريري حاليا. وبعد ذلك انتقل الفرن الى الموقع الثاني في منطقة «العاقولية» قرب ساحة الرصافي حاليا. واخيرا انتقل الفرن الى الموقع الثالث اوائل العشرينيات، هذا الموقع الحالي في منطقة «الحيدر خانه» قرب جامع الحيدر خانه الذي انشا في عهد خلافة السلطان محمود عبد الحميد سنة ١٨٢٦. كان بناء الواجهة الامامية لهذا الفرن الحالي انذاك مسقفا بـ«مراوي الخشب» و «الحصران» وبقي هذا الحال حتى اعيد بناؤه سنة ١٩٣٧ بالشكل الحالي من الطابوق والشيلمان. ان عدة العمل وتحضير مواد الانتاج كانت انذاك جميعها بدائية حيث كانوا يحصلون على مادة الطحين بشراء «الحنطة» وتنظف وتغسل ثم تطحن باليد بواسطة «الرحاية» اما العجين فكان يعجن في «المعجن» المصنوع من الخشب وبعد ان يختمر العجين ينقل الى «الطشت» المصنوع من النحاس ويضاف اليه الدهن الحر والسكر وكاربونات الصوديوم اما الفرن فكان الوقود من الحطب «الطرفة» وبعد ان يكمل الانتاج يوضع في «الكواشر» والاطباق المصنوعة من خوص النخل «الجريد» اما ميزان كعك السيد فكان مصنوعا من الخوص والحبال معلقة بخشبة. وكان عيارات الميزان عبارة عن (حصو) كبير ولا يزال يحتفظ بها السيد الى يومنا هذا حيث كان وزن «الحصوة» «٧،٥٠٠» سبع كيلو ونصف حصل عليها من على ظهور الحيوانات التي كانت تنقل الحصو لتبليط شارع الرشيد سنة ١٩٢٤ وبعد وفاة الاب رحمه الله سنة ١٩٦٣ واصر ولداه «مزاحم» و «محمد علي» في الحفاظ على هذا التراث العريق، وجودة الانتاج.

اما عدة العمل في الوقت الحاضر فقد اصبحت من الطراز الحديث، حيث كان بعض الشعراء الذين يشترون «الكعك» من السيد يبدؤون بقراءة بعض القصائد داخل المحل انذاك حيث انشد شاعر ليقول في كعك السيد..

كلما فكرت بالكعك اشتريت ...
كعك السيد احلى ما اشتهيت
طيب النكهة، حلو طعمه ...
ولذا لم يخلو منه قط بيت

ولقد ذاع صيت كعك السيد ارجاء العراق، وحتى الدول المجاورة وخاصة دول الخليج، لانه ينفرد في طعمه اللذيذ المميز.

ومن زبائن كعك السيد العائلة المالكة.. والزعيم عبد الكريم قاسم.. ونوري سعيد باشا.. وعائلة بيت الدفتري، والتاتار، وبيت الشالجي والمتولي، وملا حمادي والسهروردي وعائلة بابان، والسلوم، والضروفي، والبزركان. حيث ان بيوتهم وبيت المرحوم «السيد» قائمة حتى هذا اليوم، الا انها شبه مهجورة.

والى جانب كعك السيد انتاج «الجرك والبقصم» الذي يقدم مع الشاي للعائلة والضيوف. وفي الافراح ومولد الرسول الاعظم (صلى الله عليه وسلم) ومجالس عزاء سيدنا الحسين (عليه السلام) ويوزع خلال شهر رجب حيث يضاف للجرك والبقصم خليط من الهيل، كبابه، جوز بوه، كزبره، وحبة حلوة. وقد قام اولاد كعك السيد منذ سنة ١٩٨٠ وحتى الان بانتاج البقلاوة البغدادية الاصيلة واضاف الحلويات والمعجنات الى جانب الكعك ونبقى نقول:.

يا لذتي تجددي ... باكل كعك السيد
لنكهة تعرضها ... كل بيوت البلد..